مِصْر في عُيُون رحَّالة إسباني في بداية القرن التاسع عشر

دكتور/ صالح محمد السنيدي
أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة
جامعة الإمام بالرياض

احتدم الصِّراع الاستعماري الغربي حول العالم الإسلامي مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلاديين وبالذّات ما عُرِفَ بمنطقة الشَّرق الأوسط لاحقاً[1] في ظلِّ أفول شمس الخلافة العثمانيَّة، وكانت مصر في مقدمة هذه الأهداف والأطماع حيث شهدت صراعاً استعمارياً من نوع آخر أصبحت بموجبه حلبة للصِّدام والصِّراع بين قوَّتين متنافستين هما فرنسا وإنجلترا، فالفرنسيون بدأوا التخطيط لتوجيه ضربة حاسمة للإنجليز تقضي على مصالحهم في الشرق العربي والهند من خلال هزيمتها في مصر وقطع طريق البحر الأحمر الحيوي عليها، كيف ذلك؟ لعل الجواب جاء في تصريح نابليون نفسه حينما قال: "*لكي نحطِّم إنجلترا يجب أن نضع أيدينا على مصر*[2]", وندع أحد مهندسي هذا الهجوم وقنصل فرنسا في مصر يشرح لنا ذلك من خلال الوثيقة التي بعث بها لهذا الغرض، وهو ما يظهره تقرير ماجلون[3] Magailon في رسالته لحكومته الذي يرى فيه أن تهديد مصالح البريطانيين في سواحل البحر الأحمر والهند، يمكن أن يكون عن طريق السويس وذلك بإرسال عدد من القوات للهند على عدد قليل من البواخر والذي يستغرق شهرين فقط بدلاً عن طريق رأس الرجاء الصالح الذي يستغرق ستة شهور, بالإضافة إلى خفض الخسائر البشرية بنسبة كبيرة[4]. ولتحقيق هذا الهدف وبعد التهيئة والاستعداد وصلت قوات الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت إلى الإسكندرية في 28 يولية سنة 1798م الموافق 13 محرم 1216هـ قاصدة الاستيلاء على مصر وتأسيس قاعدة استعمارية لها في شمال أفريقية, تُحقق من خلالها مصالحها وتنفذ مطامعها القريبة والبعيدة، ومع نجاحه الباهر في الاقتحام وتحقيق الهدف بالاستيلاء على القاهرة, إلا أن حلم نابليون تحطّم أمام تزاوج المصالح العثمانية الإنجليزية التي سعت منذ الوهلة الأولى لطرد القوات الفرنسية الغازية، فبعد صراع امتدّ لسنوات نجح هؤلاء في إخراج الفرنسيين من مصر منتصف

---

[1] ظهر هذا المصطلح مع بداية حركة الكشوفات والبعثات الاستعمارية التي نشطت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وتعني المنطقة الواقعة جنوب شرق وشرق البحر المتوسط وحتى الخليج العربي. للمزيد أنظر: ويكيبيديا ، مادة "الشرق الأوسط".

[2] أنظر: Hoskins, European Imperialism in Africa. 1930, p.22. نقلا عن: شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر القاهرة 1974م ص 20 ؛ كما أن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي تناول هذا الموضوع في ثنايا كتابه وبصفحات متعددة ومتفرقة. أنظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار 3ج ط. دار الجيل بلبنان, بيروت.

[3] كان أحد التجار الفرنسيين في مصر منذ سنة 1777م وانتهى الأمر باختياره فنصلا لفرنسا في القاهرة سنة 1793م. أنظر: المرجع السابق, ص20.

[4] أنظر: CharlesRoux, L,Angleterre, l,sthme de Suez et l,Egypte au 19e siecle 1922, p94. نقلا عن: شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر القاهرة 1974م ص 20.

سنة1801م/1216هـ ومع محاولة الإنجليز استغلال الفرصة والبقاء في مصر إلا أن جهود الخلافة وبالتعاون مع الفرنسيين في لعبة المصالح المشتركة, نجحت في إخراجهم منها أيضاً بعد سنتين, وخلا الجو للأتراك ممثّلين برجلهم القوي محمد علي باشا الذي سيطر على الأمور بعد صراعٍ دامٍ مع المماليك وصفا له الحكم باسم الأتراك في مصر[5]. لكن عودة مصر إلى حظيرة الانجليز ظلَّ كابوساً يراود الفرنسيّين، وعليهم أن يضعوا العراقيل للحيلولة دون ذلك، فكان أحد خياراتهم هو كسب محمد علي إلى صفِّهم، وقد ظهر هذا التَّوجه في خطاب السفير الفرنسي إلى حكومة بلاده الذي أشار فيه إلى خطط الإنجليز للاستيلاء على مصر، وهو ما يتعارض ومصلحة فرنسا، فهو من ناحية يهدد وجودها في الجزائر، لذا فمن مصلحتها الوقوف بجانب محمد علي وسلالته من بعده وتوطيد حكمهم في مصر[6].

لذا كانت رحلة دومنجو باديا Domingo Badia أو علي باي العباسي Ali bey كما يحلو له أن يسمي نفسه التي جاءت في ظلِّ هذه الظروف، لدوافع وأهداف يتوجّس منها من تناولوا سيرة هذا الرجل، بل يؤكد البعض منهم بأنَّه ليس إلاَّ جاسوساً لنابليون مدفوع الأجر، خاصَّة وأن فرنسا لم تهدأ أو تتوقف أطماعها في المنطقة وظلّت تبعث بمندوبيها وعيونها لسبر الأوضاع وجمع البيانات الهامة ومتابعة سير الأمور هناك لاقتناص الفرصة المناسبة للانقضاض مرَّة أخرى أو على الأقل عرقلة مصالح الإنجليز هناك.

وفي هذه الدراسة سنتناول بالتَّحليل هذه الشخصية الغريبة ونتعرّف على دوافعها وأهدافها من وراء هذه الرحلة، ثم نتوقف لاستعراض ما يخصُّ مصر في هذه الرِّحلة، وما أورده في كتاباته عنها، مع الإشارة إلى ملامح هذا التنافس البريطاني ـ الفرنسي الذي أشرنا إليه آنفاً في ثنايا حديث باديا، على أمل أن نقوم بترجمة النصّ المتعلق بها في مرحلة لاحقة إن شاء الله. آملين أن نفي هذا الموضوع ما يستحقُّه من العناية والدِّراسة والجهد.

الرِّحلة والرّحالة:

---

[5] يمكن مراجعة كتب كثيرة تناولت هذا الموضوع لعل آخرها ما كتبه أندريه ريمون معتمدا على وثائق فرنسية ومصرية حول هذا الصراع, أنظر كتابه: المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798-1801م, ترجمة بشير السباعي الناشر: عين للدراسات والبحوث القاهرة 2001م؛ ومثله ما كتبته: إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر, القاهرة 2003م. وقبلهما كتب مهمة كـ: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتي والعطار القاهرة 1998م.

[6] عارف العارف: المفصَّل في تاريخ القدس، الناشر: مكتبة الأندلس بالقدس 1961م ج1 ص 278.

هذه الشخصية التي غامرت وكافحت لتصل إلى مدىً ليس بالسَّهل ـ في ذلك الزمن ـ على شخص يعتمد على مقدرته وبراعته الشَّخصية واقتناص الفرص التي قد تهّب لصالحه فترة لكنها تتقلب لفترات أُخر, ونقصد بها شخصية رحّالتنا هذا التي لم تجد من الاهتمام والدراسة ما يفيها حقّها، فما توافر لدينا من معلومات لا تتناسب وحجم هذه الشخصية وما قامت به من مغامرات ولعبته من أدوار، لكنها مع ذلك تُلقي أضواءاً كافية حول حياة هذا الرجل والتقلّبات السياسية التي عاشها وشارك في صنع أحداثها. وقد اهتمّ به الباحثون الكتلان[7] وأفردوه بدراسات وبحوث خاصة كان آخرها مجموعة من المقالات تحت عنوان:"علي باي Ali Bei حاجّ كتلاني في ديار الإسلام "باللغة الكتلانية نشر في برشلونة سنة 1996م، كما تناولتنا سيرته وظروف رحلته ومسيرته في دراسة خاصة مفصلة في أثناء تقديمنا لترجمة ما يتعلَّق بالجزيرة العربيَّة من مدوَّنات رحلته هذه التي جاءت بعد خروجه من مصر[8].

يذكر دارسو رحالتنا بأنه ينتمي إلى أبٍ كتلاني كان يعمل سكرتيرا لحاكم برشلونة وأم بلجيكية اسمها كاتالينا لبليخ Catalina Leblich، أما هو فاسمه دومنجو باديا لبليخ Domingo Badia Leblich ولد في برشلونة للأول من أبريل سنة 1767م الموافق 2-11-1180هـ، انتقل أبوه إلى غرناطة ثم إلى مدريد يرافقه ابنه الذي تبدو عليه علامات النجابة والنبوغ، فوجّهه والده لدراسة الإدارة، وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره أصبح معاوناً إدارياً لوالده في بلدة على ساحل غرناطة، ثم خلف والده في منصبه عندما انتقل إلى مدريد وعمره وقتها تسعة عشر عاما، وبعد أن بلغ أربعاً وعشرين سنة تزوج من فتاة غرناطية، وفي هذه الأثناء تحوّل إلى قرطبة ليعمل في مصلحة التبغ، وأثناء ذلك كان الطموح وحبّ المغامرة يدفعانه إلى البحث والدراسة وإجراء التجارب العلمية المتعددة التي كان آخرها تجربته الاستطلاعية حول الغاز وتأثيره في رفع المناطيد, كما سبقها وتلاها محاولات متعددة بقصد الترقية، وهي وإن كانت غير موفقة في غالبيتها إلا أنها تدلّ بوضوح على ما ذكرناه من سماته الشخصيّة المتميزة والمغامرة, وهذا ما دفعه فعلاً إلى التقدم بمشروع الرحلة موضوع حديثنا هذا في شهر أغسطس من سنة 1801م/1216هـ إلى الحكومة الأسبانية باسم "مشروع

---

[7] أحد أقاليم إسبانيا وأهمها، يقع في الشمال الشرقي منها, وعاصمته برشلونة, ولسكانه سمات الجدية في العمل والاعتزاز بإقليمهم وما ينتسب إليه، ولغتهم تختلف عن الاسبانية بالكثير من مفرداتها.

[8] المعنون بـ: رحّالة إسباني في الجزيرة العربيَّة، نشرته دارة الملك عبد العزيز بالرياض 1429هـ، ص 9- 95.

رحلة إلى شمال أفريقية ذات أهداف سياسية وعلمية", وقد تمّت الموافقة عليها مع ما يتطلبه ذلك من تمويل وتجهيز، وكان وراء المشروع والداعم الأول له رئيس الحكومة الإسبانية آنذاك مانويل جودوي Godoy الذي تحمّس له وأقنع الملك شارل الرابع Charles 1V بالموافقة عليه. عندها بدأ باديا يستعد للرحلة ويحضّر لمستلزماتها من أجهزة ومعدات وتهيئة نفسية ولغوية ومعرفية تتناسب والبلاد المقصودة، فرحل إلى لندن وهناك التقى بأعضاء الجمعية الأفريقية وبحث معهم إمكانية إجراء بعض الاكتشافات في القارة الأفريقية جنوب الأطلس، وفي هذه الأثناء قام بمبادرة شخصية فختن نفسه تأكيدا لشخصيته الإسلامية التي سوف يتقمّصها فيما بعد، ثم انتقل إلى باريس وأجرى بعض الاتصالات الخاصة وأعدّ بعض الأجهزة العلمية التي تلزمه في رحلته هذه؛ وبعد سنتين من الاستعدادات والتجهيزات انطلق صوب المغرب التي وصلها في 29 من شهر يونية سنة 1803م/ الموافق 9 من شهر ربيع الأول سنة 1218هـ معلناً بداية الرحلة، ومتنكراً بالزي العربي مدعياً أنه من أصل عربي وينتمي إلى الأسرة العباسية متخذاً من *علي باي العباسي* اسماً له[9]، مؤكداً أن الظروف دفعته إلى ترك بلاده الإسلامية والانتقال إلى أوروبا، وفي معاهدها درس العلم ونهل من معينه وتنقل في دولها ما بين إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، ممّا جعله ينسى لغة آبائه وأجداده, لكنه مع ذلك ظلّ محافظاً على تعاليم دينه الإسلامي[10].

في رحلته هذه جاب المغرب وولاية طرابلس وقبرص وبعض جزر اليونان ومصر والحجاز وفلسطين وسورية وتركيا ثم عاد إلى بلاده عن طريق فرنسا سنة 1807م/1222هـ التي كانت الأمور فيها مضطربة حيث اقتحمها نابليون بونابرت وأسقط حكومتها ونصّب ملكاً موالياً له هو أخوه جوزيف بونابرت وضمّها إلى حكمه المباشر، فتردد رحالتنا هذا ما بين تفرغه لأبحاثه ومشاريعه العلمية أو الدخول في معترك السياسة ودهاليزها

---

[9] هكذا على باي وليس بك وقد رسم هذا الاسم بالخط العربي في أول صفحة من مذكراته، وهو لقب عثماني قيادي وتشريفي، وعادة ما يكتب بصيغة "بيك" أو "بك" لكن باديا آثره بهذه الصيغة.

[10] أنظر حول سيرته ما كتبه: مواطنه خوليو رومانو: ص ص11-24.

Madrid 1957. Ali Bey el Abbasi,

جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب, ترجمة قدري قلعجي، نشر الفاخرية بالرياض ؟؟ ص ص 184-186 ؛

لمجموعة من الباحثين, برشلونة 1996م. Ali Bei; Barcelona؛ بالإضافة إلى مقدمة الرحلة نفسها.أنظر: روبن بدول: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: د. عبد الله نصيف،جامعة الملك سعود الرياض1989م ص ص. 29- 34.

المظلمة، فجذبته الأضواء وتقلّب في مناصب متعددة تحت إدارة أخي بونابرت جوزيف، وعندما انتهى الحكم الفرنسي في إسبانيا آثر باديا الرحيل معه والانخراط في خدمة الفرنسيين وتحت حمايتهم بعد أن أحرق جميع أوراقه الوطنية.

على أنه سيعاود الكرّة مرة أخرى ويشدّ الرحال من باريس هذه المرة باتجاه الشرق الذي دفعته إليه دوافع متعددة سنتوقف عندها فيما بعد[11]، لكن ما يهمنا هنا أنه لقي مصيره في هذه الرحلة الأخيرة وهو في طريقه إلى مكّة مع نهاية شهر أغسطس من سنة 1818م/ نهاية شوال سنة 1233هـ في ظروف غامضة حيث قِيل إنه أُصيب بالدوسنتاريا أو الزحار وذلك على بعد 120ميلاً من دمشق، ولا يستبعد البعض أن السمّ قد دُسّ له من قبل أعدائه الانجليز[12].

دوافع الرحلة وأهدافها:

بعد هذا العرض السريع لسيرته نتوقف عند هذه الشخصية بالتحليل والدراسة لمعرفة دوافع الرحلة, ولصالح من كانت تلك المعلومات التي حملتها مجلداتها؟

كما رأينا فيما عرضناه من معلومات؛ رجل مغامر وذكي وطموح تدرّج بسرعة في المناصب الإدارية ومع ذلك لم يجد فيها ما يُرضي طموحه، ففكّر بطريقة توصله إلى ذوي الشّأن وأصحاب السلطان, وجدها في موضة ذلك العصر وهي الاكتشافات والتجارب العلمية التي كانت حديث المجالس في أوربا وحلم شبّانها ومحطّ أنظار ساستها، فكانت تجاربه ومحاولاته العلمية ورقةً أدخلته إلى الدهاليز المتنفذة وصانعة القرار في بلده، ومع أنه فشل في معظم تجاربه هذه خاصة الطيران بالمنطاد بواسطة الغاز, إلا أنه تحول إلى ما هو أهمّ, فعالم المغامرات واكتشاف العالم الجديد مازال له بريقه ولمعانه في هذا الوقت, والصراع حوله بين أقطاب القوى الاستعمارية الأوربية المتنافسة على أشده، وتركة الرجل المريض تغري بالمغامرة ودخول المعترك. كل ذلك دفع بمغامرنا إلى الدخول في المعمعة والتقدم بمشروع الرحلة.

---

[11] وذلك في الدراسة الوافية على مقدمة رحلته للحج؛ التي نعمل على إنجازها قريبا إن شاء الله، وستقوم دارة الملك عبد العزيز مشكورة بطباعتها.

[12] روبن بدول: الرحالة ص 34؛ Ali Bei; p. 263. ولا يستبعد هذا الرأي لأن الفرنسيين قد انتدبوه في مهمة تتعلق بالهند. خوليو رومانو:Ali Bey ص24.

لقد احتار من كتب عن هذه الشخصية في تصنيفه وتبعيّته، فعلى الرغم من اتفاقهم على انخراطه في سلك الجاسوسية وأساليبها القذرة، إلا أنهم لم يتّفقوا على من كان يقف وراءه ويتلقى تقاريره الدورية، هل هم الأسبان بتطلعاتهم نحو شمال أفريقية وبشكل خاص المغرب؟ أم نابليون بأحلامه وطموحاته التوسعية نحو شمال أفريقية والشرق الإسلامي العربي؟ الدلائل التي تجعل منه عميلا إسبانياً أو فرنسياً ملتزما لم تصل إلى حدّ القطع مع وجودها وظهورها بوضوح وبشكل مكشوف أحياناً بالمغرب, مثلاً عندما كان يسعى لتحقيق طموحات قادة بلاده فيها؛ وفي مرحلة الإعداد للرحلة زار لندن والتقى بأعضاء الجمعية الأفريقية وبحث معهم العمل لصالحهم في أفريقية تحت ستار الاكتشافات العلمية[13] ولعلنا ندرك مدى ارتباط هذه الجمعيات بالأهداف الاستعمارية لبلادها، ومع ذلك فإننا نجهل مدى تجاوب هذه الجمعية مع مشروعه هذا، فهل كانت إحدى الممولّين له في رحلاته عبر البلاد العربية ؟ وفي ذات الفترة وبعد أن خرج من لندن اتجه إلى باريس بحجّة استكمال الاستعدادات للرحلة، فهل عقد صفقة مع حكومة فرنسا للعمل لصالحها في هذه المناطق مشروع الرحلة؟ ثم ما مدى ارتباطه بحكومة بلاده على مدى مشوار الرحلة؟ كل هذه التساؤلات تحتاج لأكثر من دراسة للإجابة على ملابساتها خاصة وأن باديا - كما يقول مواطنه خوان بارثيلو[14] Juan Barcelo - "*لا يعدو عن كونه جاسوسا يستحيل معرفة سيرته الذاتية لأن الجواسيس ليس لهم سيرة واحدة بل متعددة هي التي يمكن بمجموعها أن نخرج بتصور ولو جزئي عنهم*[15]"، وفي اعتقادنا أن باديا استخدم كل أساليب المكر والخديعة لا ليخدع بها ضحاياه السذّج وذوي النوايا الطيبة في البلاد التي زارها فقط وإنما ليلعب على كل الحبال، فبعد أن أقنع حكومة بلاده بمشروعه التجسّسي والتخريبي داخل المغرب وأغراها بخيرات هذا البلد وهشاشة الحكم فيها،كسب الدعم والتمويل منها طول مدة إقامته بها, مرتبطا بشبكتها التجسّسية ومزوداً لها بالأخبار والمعلومات والاقتراحات ومستمداً منها التوجيهات تحت اسم رمزي هو "الشيطان" أحياناً و"الرحالة" في

---

[13] روبن بدول: الرحالة ص ص 32-3.

[14] هو من ضمن مراجعنا في هذا الموضوع، ولمعرفة المزيد عن هذا الباحث يمكن مراجعة سيرته الذاتية على الشبكة العنكبوتية، وهي متاحة للجميع. وبارثيلو أحد الأساتذة المقتدرين في جامعة برشلونة بإسبانيا، شارك مع مجموعة من الأساتذة الإسبان في إعداد كتاب ومعرض عن هذا الرحالة ورحلته.

[15] **Ali Bei, p. 251**

أحيان أخر[16] ، ساعياً إلى كسب ودُّ السلطان مولاي سليمان امبراطور المغرب[17] (1206-1238هـ/1792-1822م) وإقناعه بالحماية العسكرية الإسبانية ضد أعدائه, وفي حالة رفضه فسيدفع البلد إلى حرب أهلية تجعل الأسبان يصطادون في الماء العكر[18]، ومع ذلك فإن الأمر اختلف عندما غادر باديا المغرب، فمع محاولة البعض تأكيد استمراريته في العمل لصالح إسبانيا من أجل تواجد في منطقة الشرق الأوسط لتكون قريبة من الهند والشرق العربي ولذا كان على صلة بعناصر إسبانية ذات نفوذ واسع من جزيرة مايوركا[19]، لكن مع احترامنا لهذا الرأي إلا أنه يصعب إيجاد أية دليل يؤكد هذه المقولة، بل على العكس كل الأدلة تشير إلى أنه عمل لصالح الفرنسيين بعد خروجه من المغرب مباشرة فلم يمض وقت طويل على مغادرته للجزائر حتى كان نابليون يفكر بإنزال عسكري فيها، بل هناك دلائل تشير إلى أنه كان يفكر بإنشاء مستعمرات سكنية أوربية على الساحل الشمالي لأفريقية للاستفادة من حبوبها وسدّ حاجة جيوشه منها[20]، وحتى وصل الأمر بالبعض ليقول بأنه ليس إلا أحد موظفي إمارة البحر الفرنسية أُرسل إلى البحر الأحمر لتدوين ملاحظات فلكية وتحديد مواقع جغرافية[21]، ليس هذا وحده فقصّة الرحلة مليئة بالإشادة بفرنسا والفرنسيين وإنجازات الحملة الفرنسية على مصر ثم اتصاله بالقناصل الفرنسيين وعودته إلى فرنسا أولاً وليس إلى إسبانيا, وأكثر من ذلك تعاطفه بل وتعاونه مع الاحتلال الفرنسي لبلاده ثم رحيله مع قواتها بعد طردها إلى باريس، كل ذلك لا يدع مجالاً للشك في ارتباط باديا بحكومة فرنسا بعد خروجه من المغرب .

هذه الثوابت التي أكدها عدد من الكتاب الأوربيين نستبعد معها أن تكون تزييفاً لحقائق ثابتة أو تشويهاً للشخصية التي حاول أن يرسمها لنا باديا فيما كتبه من أنّه مسلم يسعى لصالح الإسلام والمسلمين، ربّما نشكّ في هذه لو أنها توقفت عند حدّ الاتهامات المجردة ولم تصل إلى المسلمات الثابتة، لكن رغم هذه الثوابت فإنّ من كتبوا عنه احتاروا في مدى تلك

---

[16] المقدمة: ص 16. Ali Bei, p. 269

[17] هو سليمان بن محمد أحد حكام دولة الأشراف العلويين في المغرب، تولى الحكم في ظروف سياسية عصيبة، أنظر حوله: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ج8 ص 86- 174.

[18] المقدمة: ص 15.

[19] Ali Bei, p. 259

[20] روبن بدول: الرحالة ص 33.

[21] جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب ص 185.

العلاقة وهل تصل لحدّ العمالة، خاصة عندما وقفوا مبهورين أمام مقدرته في مزج شخصيته الأسطورية بالحقيقيّة, وإظهاره لنفسه وكأنه مؤمن إيماناً عميقاً في كل ما يكتبه، ثم تمسكه بشخصيته الخيالية طيلة مراحل رحلته وحتى بعد عودته إلى أوربا. كما تساءل أولئك عن تلك الإمكانيات المالية التي توفرت له وسهلت رحلته وجعلته ينفق ببذخ، ما هو مصدرها إذا افترضنا براءة الرجل وصحّة ما ذهب إليه؟ ونحن بدورنا نتساءل ونضيف تساؤلاً ملحاً آخر هو: كيف وصل باديا وبهذه السهولة إلى قصور أمراء ورؤساء تلك البلاد العربية التي زارها؟ حيث يجد الطريق أمامه سالكةً ميسّرة، فبعد أن وصل المغرب التقى سلطانها وكسب ثقته ثم نجد حاكم طرابلس[22] يتوسل إليه بالبقاء, وكذلك الحال مع محمد علي بمصر (1220-1264هـ/1805- 1848م), وفي الحجاز يسكن بجانب قصر الشريف[23] ويتلقى استقبالا حاراً منه، فهل صدّق هؤلاء ادعاءاته وانتحاله لهذه الشخصية الخيالية أم كان للهدايا المميزة التي تسبقه والتوصيات الخاصة من قبل حكومات أوربية معينة بشكل أو بآخر أثر في ذلك القبول وتلك التسهيلات؟ كل هذه الدلائل والمؤشرات تجعلنا نؤكّد بأنه ليس إلا أحد هؤلاء المستكشفين وموظفي الدوائر الاستعمارية رغم محاولته المستميتة خداعنا وإقناعنا بأنه أحد المسلمين نسباً واعتقاداً والساعي للحقيقة العلمية المجردة. فبالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقا من علاقاته وارتباطاته بالدوائر الاستعمارية، فإن هذه العلاقة تلازمه في رحلته داخل البلاد الإسلامية ليس في المغرب وحدها بل في طرابلس ومصر والحجاز، ففي قبرص مثلا التي كانت خارج إطار رحلته مكث فيها حوالي الشهرين بحجّة أن المركب والأمواج دفعت به إليها وكانت حائلاً دون وصوله للإسكندرية وهو ما يلقي أكثر من علامة استفهام فلو كانت المسألة كذلك لما احتاج إلى كل هذه المدة، لكنها كانت تخفي وراءها أشياء أخرى باعتقادنا, فقد التقى خلالها بشخصيات وأشخاص سهّلوا له مهمته ورحبوا به[24]، يرجّح بارثيلو أن يكون التقى خلالها بزملائه من عملاء المخابرات الأوروبية وتزوّد فيها بالمال

---

[22] **ينتمي هذا الحاكم لأسرة القرماني التي حكمت طرابلس في هذا الوقت، وهي أسرة تنتمي إلى أصول أناضولية، أدارت هذه الولاية شبه مستقلة عن الحكومة العثمانية، وتميزت بوقوفها القوي في وجه الهجمات الاستعمارية في حوض البحر المتوسط معتمدة في ذلك على أسطولها القوي ودعم العثمانيين لها، أنظر عنها: جلال يحيى: المغرب الكبير، ط. بيروت 1981م ج3 ص 58- 63.**

[23] **المقصود به الشريف غالب الذي كان حاكماً للحجاز في هذه الفترة، وقد عرَّف به الرحالة وفصَّلنا الحديث في كتابنا: "رحَّالة إسباني ..." المشار إليه سابقاً ص 89- 91؛ 267-278.**

[24] **الرحلة: ص 199.**

والتعليمات اللازمة[25]، ثم في مصر يزوره القنصل الفرنسي[26]، وتتكرر هذه الزيارات واللقاءات من قبل مسئولين فرنسيين وأوربيين في أكثر من مناسبة وأكثر من مكان, لدرجة أن أحد من تناولوا سيرته كتب متعجباً كيف يستطيع هذا الجاسوس العتيق الوصول إلى شخصياته في أغلب الأماكن التي حلّ بها مدعياً أحياناً أنه صديقه القديم[27] ومرات أخر دون تعليل يذكر.

من هنا يمكن القول أن باديا حاول جاهداً أن يستثمر كل الظروف لصالح مشاريعه وتحقيق طموحاته لاعباً على كل الحبال مستخدماً كل الوسائل الممكنة لخدمة هذه الأهداف بعد أن درس عصره وعرف كيفيّة الوصول إلى ما يريد. اتّصل بالإنجليز واستفاد من تجارب وخبرة الجاسوسية فيها ووعدها مقابل ذلك بخدمتها في مناطق محددة مقابل تسهيلات معينة، ومع أنه كرس خدماته لبلاده في المغرب وبشكل مكشوف ولا يقبل الجدل إلا أن هذا لا يمنع جاسوس محترف أن يتعامل مع أكثر من جهة ويرسل تقاريره لعدة أطراف حسب ما تقتضيه مصلحة تلك البلاد خاصة بريطانيا وفرنسا، بدليل أنه ظلّ على صلة بهذه القوى وارتباط أوضح بعد طرده من المغرب، ففي قبرص يلتقيه ممثل بريطانيا ويسكن في منزل أحد عملائهم ويستفيد من توجيهاته[28]، لكنه عندما يصل إلى مصر تظهر عليه علامات الضجر من الإنجليز وينسب إليهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة ما حلّ بها من خراب ومشاكل اقتصادية[29]، ويصل به الحدّ إلى اتهامهم بشكل صريح بسرقة الآثار[30]، كما ينتقد الرحالة الانجليزي براون BROWN بما كتبه عن القاهرة وأنها لا تعدو عن معلومات خاطئة في غالبيتها[31] مما يشير إلى أنه اتخذ موقفاً وخطاً آخر يصب في صالح الفرنسيين، ولذا لم تغفر له المخابرات البريطانية هذه الإهانة وربما الخيانة فانتقمت منه وقتلته بالسم عندما استأنف رحلته من باريس مرة أخرى على رأي أغلب من تناولوا سيرته[32]، ويؤيّد هذا الرأي أيضاً خوفه وتوجسه من الانجليز, نلحظ ذلك واضحا في مغادرته للقاهرة في سفرةٍ مفاجئةٍ تشبه الهرب عندما أحسّ أن هذه المدينة

---

[25] Ali Bei, p. 253.

[26] **الرحلة: ص 273.**

[27] Ali Bei, p. 255.

[28] **الرحلة ص 199.**

[29] **نفسه ص 235.**

[30] **نفسه ص 236.**

[31] **نفسه ص ص 263-4.**

[32] Ali Bei; p. 263. ؛ **روبن بدول: الرحالة ص 34.**

تقع في مرماهم[33]. أما فرنسا فظلّ على ولائه لها حتى وفاته, ولذا فقد استحق أن يُمنح لقب "سيّد" نظير ما أسداه لها من خدمات في الشرق[34]، وسنتوقف عند هذا كلّه بالدراسة الموسعة في ترجمة الجزء الخاص بالحجاز الذي سيرى النور قريباً إن شاء الله.

خط سير الرحلة:

انطلقت خطوات رحالتنا هذا من جنوب إسبانيا وابتدأت بطنجة التي حلّ بها في الساعة العاشرة من صباح يوم 29 من شهر يونية سنة 1803م الموافق لـ9من ربيع الأول1218هـ وانتهت بخروجه من الدولة العثمانية في 19 من ديسمبر سنة 1807م الموافق 19 من شوال 1222هـ زار خلالها المغرب وطرابلس ومصر والحجاز وفلسطين وسورية ثم الأناضول والقسطنطينية، وفي أثناء الرحلة مرّ بقبرص وجنوب اليونان مع أنها لم تكن في برنامج الرحلة.

أما مصر ـ موضوع حديثنا ـ فقد دخلها من بوابتها الشمالية ونقصد بها "الإسكندرية" عصر يوم الثاني عشر من مايو سنة 1806م الموافق 1221/2/23هـ بعد رحلة عاصفة صارع فيها مركبهم الأمواج، وتلقوّا صنوف الأهوال . وظلّ فيها مدة ليست بالقصيرة تنقل في عدد من مدنها وقراها حتى استقل مركب الحجّ المتّجه إلى مكة عبر البحر الأحمر في 23 من ديسمبر من نفس السنة الموافق لـ1221/10/13هـ.

مذكِّرات الرِّحلة:

مذكرات دومنجو باديا أو علي باي العباسي وما سجله خلال رحلته تلك، سعى جاهداً أن يطبعه وينشره في أوربا ولم يتأخر ذلك كثيراً، فقد طبعت الرحلة في ثلاثة مجلدات وأطلس باللغة الفرنسية بفرنسا سنة 1814م بعنوان: "رحلات علي باي العباسي في أفريقيا وآسيا" ولم يلبث أن تُرجم وطبع بالإنجليزية والألمانية سنة 1816م ثم الإيطالية عام 1817م، بينما تأخّرت الطبعة الإسبانية حتى سنة 1836م في مدينة بلنسية[35]، وبين أيدينا نسخة تتكون من مجلدين باللغة الإسبانية, نُشرت في برشلونة سنة 1982م، تحمل عددا من الصور والخرائط؛ وقد اعتمدت الدراسة هذه على طبعتي اللغة الإسبانية خاصة طبعة برشلونة.

---

[33] كما سنرى في آخر هذا الموضوع.

[34] Ali Bei; p. 261.

[35] بيرن : اكتشاف ص185. Ali Bei; p. 232

وقد حظي الكتاب بدراسات نقدية وتحليلية من بينها تلك التي تصدرت طبعة الكتاب الأخيرة والتي قام بها خوان جُويتيسولو Juan Goytisolo، وفيها أبرز الأهمية القصوى لهذه الرحلة كمصدر غنّي وشامل عن تلك المناطق التي زارها, رغم بعض المبالغات التي تتخلل أحاديثه أحياناً، كما أنها ثريّة بما حملته من أوصاف ومعاينات انثروبولوجية وعلمية وجغرافية ودقّة في وصف الحج بمشاعره ومشاهده، مما يمنح كاتبها مكانة مميزة بين أولئك المغامرين والرحالة والمستكشفين وموظفي الدوائر الاستعمارية الذين مزجوا الدافع السياسي والمهني بالتعلق الشخصي بالحياة العربية والافتتان بالإسلام[36]، كما تتميز كتابات باديا بالأسلوب المنظم والمعرفة العلمية واللغوية التي تجعل منه وحده ـ في تلك الفترة ـ ممثلاً للعالم الحديث على حدّ تعبير روبن بدول[37]، قدم أول تقرير للغرب دقيق ومفصل عن الحج كما رآه وعايشه[38]، ومن بين الدراسات الجديرة بالإشادة تلك التي قام بها عدد من الكتاب الأسبان وغيرهم بعنوان : "علي باي : حاج كتلاني في ديار الإسلام" كما خصّه الأديب الإسباني خوليو رومان بدراسة طريفة بعنوان: "علي باي العباسي" وقد سبقت الإشارة إليهما.

وقد احتل الجزء المتعلق بمصر ثلاث وأربعون صفحة (228- 270) في الجزء الأول من طبعة برشلونة ذات خطٍ صغير.

الجزء الثالث:

مصر في رحلة علي باي العباسي

الفصل الأول: وصف الإسكندرية وأقدميَّتها

مصر الّتي كانت هدفًا لرحلات المستكشفين والمُغامرين وذوي الأهداف المتباينة قبل هذا القرن وبعده، كان لها نصيب وافر في رحلة رحالتنا هذا دومنجو باديا أو علي باي العبّاسي كما يحلو له أن يسمّي نفسه. فقد أفرد لها فصلاً متكاملاً نستعرض أهمّ محطّاته:

يذكر باديا أنه قرر مواصلة رحلة الحجّ إلى مكّة المكرمة متخذاً من الاسكندرية طريقاً، فاستأجر مركباً يونانيا صغيراً أقلّه هو وخدمه من قبرص, ورسا بهم في ميناء الإسكندرية في تمام الساعة الثالثة من عصر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة 1806م(23من صفر 1221هـ) بعد

---

[36] مقدمة الرحلة، ط. برشلونة ص26.
[37] أنظر: الرحالة ص34.
[38] بيرن : اكتشاف ص 188.

رحلة شاقة ومعاناة مع الأمواج استمرت لمدة يومين ونصف, وتعرّضهم للمساءلة والاستفسار من طرف فرقة من الأسطول العثماني, أفاد باديا خلاله أنه قادم من المغرب لأداء فريضة الحج وأنه أحد الأشراف وابن السلطان، مما سهل لهم الخلاص؛ وقد جاء لاستقباله والبحث عنه الشيخ إبراهيم باشا الذي يعتبر ذو المرتبة الثانية بالإسكندرية واصطحبه معه لمنزله وقدم له القهوة والمرطبات، ثم انتقل بعدها إلى محل إقامته الذي أُعدّ له سلفاً.

ويشيد بتعامل رجال الجمارك ولباقتهم, فحقائبه وأمتعته لم تتعرض لأية تفتيش, وبكلمة واحدة ـ يقول باديا ـ " *تلقيت كل معاني التقدير والاحترام التي تعبر عن أخلاقيات هذا الشعب الطيب*[39]".

تبدأ بعد ذلك رحلة الوصف والتجوال في هذه المدينة ومعالمها وآثارها، مستهلاً ذلك بقوله: " *ليس من الصّعب على رحّالة تأليف مكتبة متكاملة لوصف هذا البلد*[40]" لكنّه يُشير إلى ما كتبه مُرافقو الحملة الفرنسيّة من وصفٍ يصعب الزّيادة عليه، وكعادته في فصول مذكراته، يبدأ بالوصف الجغرافي لـمدينة الإسكندريّـة الّتي استّهل رحلته لـمصر مُبتدأً بها ومحدداً موقعها الطّولي والعرضي، ثّم يعرّج على أهميّة الـمدينة وأوليتها ومكانتها السابقة بالنّسبة لـمصر تجاريًا واستراتيجيًّا ويذكر أنّ تعداد سُكانها كانوا أكثر من مليون، كما يقدّر دخل جماركها بستّين أو خمسة وستّين مليون فرنك في حالة الرّخاء، ويقارن ذلك بوضعها الحالي الذي لا تتجاوز معه جماركها الخمسمائة ألف فرانك. ثمّ ينتقل إلى الجانب التّاريخي مُردّدًا الـمقولة الّتي يتغنّى بها الـمؤرّخون الغربيّون بأنّ الـمسلمين كانوا وراء خراب المدينة أو إهمالها. ويذكر نقلاً عن القّصاصين أنّ بهذه الـمدينة أربعة آلاف قصرٍ ومثلها من الحمامات العامّة وأربعمـائة سوقٍ وأربعين ألفا من اليهود ومثلها كذلك من الحدائق والبساتين الّتي كانت تزيّن ما يحيط بالمدينة والتي أصبحت اليوم صحاري قاحلة تكسوها الرمال المتحركة.

ينتقل بعد ذلك بالوصف لأطلال الإسكندريّة وآثارها القديمة، ويعود إلى الـمدينة نفسها لـيُؤكد أنّه ليس مع الصّورة السّوداويّة الّتي صورها بعض الرّحالة الذين سبقوه لهذه الـمدينة الجميلة سواءً في شوارعها أو منازلها وأسواقها أو حتّى أهلها عندما يصفونهم بالاضطراب والعناد وقلّة التّحضر. ويفيض في وصف المدينة بـمنازلها وشوارعها ومرافقها مُشّبهًا لها بـمدينة بلنسية الإسبانية.

---

[39] **أنظر: ج1 ص 229.**
[40] **أنظر: ج1 ص233.**

ويُشير إلى وضع الإسكندريّة الحرج اقتصاديًّا نتيجة للحروب مع النّصارى خارجيًّا, وبسبب الصراع مع المماليك ونقص العُملة داخليًّا، وأزمة النقل والمواصلات، وكذلك نظرًا لهُروب سُكانها إلى الحقول نتيجة لظروف الحرب مع الانجليز.

ومع أنّه يعيب على أسلافه الرّحالة ما وصفوا به سكان الإسكندريّة من صفاتٍ سبق ذكرها لكنه يردّد ما هو أشدّ، فهم في غالبيتهم " *عربٌ رجالهم جهلة فظّوا الطّباع إلاّ أنّه لا يمكن وصفهم بالصلف والعناد ولا حتّى بالسّيئين مع النّصارى لكنهم يكدحون ويدارون ظروفهم السّيئة بصبر العبيد*[41]".

ويعتقد أنّ مردّ سُوءِ النّظرة للأوربيين من قبل هؤلاء السّكان سابقًا هو بسبب المشاكل الدّينيّة، لكنّ الحملة الفرنسيّة جعلتهم يعتقدون أنّ النّصراني لا يكرهُ المسلم حتّى أنّها أكدّت بما فيه الكفاية على ذلك بمُعاملة السّكان كأشّقاء، ثمّ يشيد بهذه الحملة وما قدّمته لهذا البلد في المجالات المتعدّدة الحضاريّة والسّياسيّة وغيرها.

يعود مرّة أخرى مُفصّلاً الحديث عن المنازل واصفًا لها من الدّاخل بدّقة مُتناهية وحتّى محتوياتها العامّة من الأثاث، وكذلك الأسواق وأماكن تواجدها في المدينة، ويؤكدّ على الرّغم من عدم حصانة المدينة إلاّ أنّه لم يسمع عن أيّة حوادث سطو أو اعتداء طيلة مدة إقامته هناك, ممّا يؤكدّ على أنّ الإسكندرانيين ليسوا سيئين كما يصفهم البعض.

يتوّقف بالوصف عند مسجد المدينة أو جامعها الأعظم ويتوقف عند ضريح سيدي أبو العبّاس، ويُشير إلى بعض المشاهد الّتي رآها قبل إقامة صلاة الجمعة من النّشيد الجماعي وترديد الأدعية ثمّ مشهد المؤذّن وهو يتلو الآذان وتردّده خلفه مجموعة بصوت جماعي واصفًا صوت هذا الرّجل بأنّه كصوت كهلٍ يحتضر.

ويذكر أنّ المساجد تعتمدُ في مصروفاتها على ما تجود به أيدي المُحسنين فما تقدّمه الدّولة قليل لا يستحّق الذّكر. مُشيرًا في الوقت نفسه إلى اختفاء عددٍ من المساجد القديمة والجميلة الّتي ذكرها الرّحالة السّابقون، فالحروب الّتي يخوضها الأتراك قضت عليها، وكذلك الحال مع أحد الآثار الهامّة الحجريّة الّتي تعلوها النّقوش الهيروغليفيّة والّتي أشاد بها

---

[41] **أنظر: ج1 ص235.**

هؤلاء الرّحالة هو الآخر اختفى، "*وما يغلب على الظّن* – كما يقول باديا – *أنّ الإنجليز نقلوه إلى بلادهم*[42] ".

ينتقل بعدها إلى الأسعار ويقارنها بأسعار تلك البلاد الإفريقيّة الّتي زارها ويؤكد على زيادتها في الاسكندرية عنها، ويُشير إلى بعض أسعار المواد الغذائيّة بالعُملة التُّركيّة مُقارنة بما يُعادلها بالعملات الأوروبيّة.

أمّا المياه الّتي تسقي المدينة فتأتي أساسًا من النّيل مع مشاكل تعترض وصولها، وقد وصف القنوات والمجاري الّتي توصلها إلى المدينة. كما توّقف عند فنار الإسكندريّة بالوصف وموقعه والبديل الّذي شيّده العرب، ثمّ يتحدث عن أبواب المدينة, ويقول: "*إنه قبل الحملة الفرنسيّة كان يسمحُ لمراكب النّصارى بالدّخول من الباب الشّرقي فقط وهو الأسوأ، أما الغربي فقد كان مخصصا لمراكب الأتراك, لكن بعدها أصبحت كلا البابين مفتوحة للجميع*[43]".

أمّا دفاعات المدينة فكانت عادية لكنّ الفرنسيين شيّدوا القلاع والأسوار مُؤكدًّا على أنّ العرب والأتراك يجهلون فنّ الحرب ودفاعاته .

ثم يصف نباتات المدينة وحيواناتها ويلفت نظره نوعٌ من الحمير الصّغيرة الّتي تتميّز بالسُّرعة والنّشاط والتّحمل. كما أنّ سوق الخيول يضمّ كل الأنواع والأجناس ولها مواصفاتها الخاصّة بها.

أمّا المدارس فمع تواجدها وتنّوعها حسب المذاهب والطّوائف فهي تتّسم بالشدة واختلاف المناهج والطّرق، لكن يبدو الاهتمام بالتّعليم واضحًا، ومن ينجحُ في هذه المدارس يواصل دراساته في القاهرة، كذلك الكتاتيب في المساجد الرّئيسيّة تؤدّي دورها وقد وصف إحداها في طريقة تعليمها ونظامها وصفا دقيقا.

كما حضر احتفالاً أُقيم بمناسبة الإسراء والمعراج في مسجد المدينة الرئيسي، وأشاد بالحضور والبرنامج والاستعدادات التي حظي بها.

ويتحول إلى بقايا الإسكندرية القديمة، وكيف غمرتها الرمال بسبب الرياح الغربية التي تهب عليها دون توقف, ويتوقف بالوصف والتحليل لتلك الآثار الباقية التي سلمت من أيادي سكان الإسكندرية، الذين كانوا يستخدمونها في بناء منازلهم الجديدة.

---

[42] ج1 ص236.
[43] ج1 ص237.

ويذكر أن عدداً كبيراً من هذه البقايا الأثرية التي استخرجها الأوربيون من بين الأنقاض, كانت على ضفّة البحر ليشحنها هؤلاء إلى بلادهم، لكن الظروف لم تسمح لهم فظلت مغمورة بالرمال والمياه. ويسهب في وصف الآثار الباقية كمسلة كيلوباترا وغيرها من تلك المتناثرة على سواحل المدينة وأطرافها ويناقش الروايات المأثورة حول بُناتها، وقصة الإسكندر المقدوني ونحوها مما يُروى ويُشاع.

المغارات أو المقابر الملكية أو مدن الأموات كما يسميها، هي هدف الرحالة ومحطّ أنظارهم، ولذا فقد حُظيت باهتمام بالغ من قبل باديا، فخصّص لها مساحة ليست بالقليلة من الوصف والدراسة. ولم ينس كيلوباترا ولا حماماتها التي ذكّرته بمكتبة الإسكندرية الضائعة وقرار الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي كان وراء ذلك[44].

الفصل الثّاني:

يعود في هذا الفصل مرّة أخرى لوصف الإسكندرية خاصّة جانبها البحري وما يضّمه من أطلال وبقايا أعمدة ونحوها وكذلك مراسيها وآثارها وكُهوفها وعلى مدى أكثر من ثلاث صفحات، كما يتحدث عن شواطئها ومرافئها ومصائدها وحركة المدّ والجزر وتأثيرها على هذه الشّواطىء ، ثمّ يعرّج على الصّحراء المحيطة بالمدينة ورمالها ونباتاتها وحيواناتها .

يذكر أنّ مدينة الإسكندريّة تضم خليطاً بشرياً من كلّ الأجناس، ولذا فهي تتكلّم كلّ اللّغات فالأطفال يتحدّثون ثلاث أو أربع لُغات في نفس الوقت، ممّا يمكن معه القول: " *إنّ الإسكندريّة هي أسوأ مكان في العالم لتعلّم اللّغة*[45] ".

يفصّل علي باي الحديث في هذا الفصل عن الأجناس والأعراق الّتي تسكن المدينة فالقُبط تعدادهم حوالي الألف ويمارسون التّجارة، ومثلهم كذلك اليونانيّون الّذين يقدّرون بأربعين عائلة مستقرّة، لهؤلاء معابدهم ويقيمون طُقوسهم الدّينيّة بحريّة تامة، كما يوجد أكثر من ثلاثمائة يهودي مُقيمين بصفة دائمة، لهم معبدان صغيران, أما الأكبر فقد هدّمه الأوربيّون، وهم يمارسون التّجارة والصرافة. كما يوجد خليط من الأوربيون (الفرنجة) يقدّر بأكثر من مائتين, يمارسون التجارة التي تتأثر بالظروف المحيطة،

---

[44] **ثبت بما لا يدع مجالاً للشّك أن هذا الكلام محض افتراء، وقد تناول هذه الحكاية عدد من الباحثين والكتاب من أبرزهم: حسن إبراهيم حسن في كتابه: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط. بيروت 1964م ج1 ص241- 246.**

[45] **ج1 ص 245.**

والتي كانت سيئة أيّام مجيء الرحالة نظراً لكسادها. ويُشيد بالحريّة الّتي يتمتّع بها هؤلاء رجالاً ونساءً في لباسهم ومعاشهم وعباداتهم وما يُلاقونه من احترام في البلد المُضيف على خلاف ما هو موجود في المغرب.

لم ينس رحّالتنا أن يعرّج على المرأة ولباسها وجمالها، ويذكر في هذا الصّدد أنّ المرأة حتّى اليهوديّة والنّصرانيّة تلبس الحجاب كالمسلمة .

من حيث النظافة والعناية بها، يوجد في الإسكندريّة حمامات تركية عامة يؤّمها النّاس على مختلف دياناتهم وأجناسهم.

يتحدّث عن المهن الحرفية الموجودة بإيجاز ويعدد ما رآه منها, وينتقد الرّحالة الإنجليزي مستر براون[46] في حديثه عن بعض المصنوعات الزّجاجيّة وأماكن تواجدها ويصوّب ما ورد في حديثه.

وقد لفت نظره احتفال المسلمين بختان أبنائهم، وشرح لنا طريقة هذا الاحتفال. وبهذه المناسبة يتحدّث عن الموسيقى السائدة ويقارنها بالموسيقى التّركيّة ويستعرض معارفه في هذا المجال مسترسلاً في وصف بعض الحفلات والمقاطع الموسيقيّة.

ثم ينتقل إلى موضوع البريد وكيف يتّم توزيعه وساعي البريد ومواصفاته، ثمّ يتحوّل فجأة إلى الطّقس وأجواء المدينة ثمّ يتحدّث عن موضوع الصّحة ويقول:

***"إنّ الرّمد أو التهاب العين يكادُ أن يكون المرض المستوطن الوحيد في الإقليم[47]"* ويعزو ذلك إلى الرّمال النّاعمة الّتي تحرّكها الرّياح.**

يصّرح لنا هنا في إحدى الفقرات (ص249) أنه وعلى الرغم من أنّ تاريخ تلك البلاد الّتي زارها هو هدف لمسار رحلاته، *"لكنّ الموقع الاستراتيجي المتميّز لمصر تلك البلاد الّتي ليس لها تلك المساحة الشّاسعة وتتمتّع بنوع من الاستقلال غير المنتظم، يلفت النّظر بشكل أخصّ. الأمر الذي يدفعني لإعطاء فكرة عن أوضاعها حسب ما أتوصل به من أخبارها منذ رحيل الحملة الفرنسية حتى ساعة رحيلي إلى مكة ".*

يدخل في ميدان التّاريخ والصّراع على مصر ويفصل الحديث في تحالف الأتراك مع الإنجليز لإخراج الفرنسيين والحملات الّتي اشتركت في

---

[46] زار مصر سنة 1792م وسجل مشاهداته عنها، واتجه بعدها إلى الحبشة؛ وقد سجل وقائع رحلته في كتاب نشره في لندن سنة 1799م أسماه: رحلات في أفريقية في مصر وسوريا. أنظر: إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين، ص50.

[47] ج1 ص248.

هذه العمليّة وتعدادها وأماكن تمركزها. ثمّ يتحدث عن مصر بعد ذلك والصّراع على السّلطة والنّفوذ فيها بين الألبان والمماليك والأرناؤط والأتراك والّتي انتهت بتولية محمّد عليّ لحكم مصر[48]، وتدخّلات الإنجليز بكلّ هذه الأحداث، وذلك على مدى حوالي ثلاث صفحات.

ويتوقف عند حدث مهم هو تعيين علي باشا حاكما للإسكندرية (ص250) من قبل الباب العالي في القسطنطينية، وبناءاً على سياسة الشدة مع الخصوم والمعارضين التي اتبعها، وكذلك تقييد حركة القناصل الأجانب، الأمر الذي دفع بهم إلى الاحتجاج الصامت وهو اللجوء إلى أحد البواخر الراسية في الميناء مع عوائلهم مما دفع معه الباشا إلى فتح باب المفاوضات معهم للعودة إلى منازلهم خوفاً من النتائج، وهو ما حصل بعد مفاوضات ومطالب خضع لها، وقد بقي هؤلاء القناصل على ظهر السفينة خمسة عشر يوماً.

ويعرّج على قصة المملوكي الألفي[49] وسفره إلى لندن عن طريق مالطة وأسباب هذا الرحيل، حيث يذكر أن الرجل ملّ من مماطلة الإنجليز وعدم تقديره حقَّ قدره فقرر الاتجاه إلى الفرنسيين وفتح علاقات معهم، وكان على وشك السفر إلى باريس لهذا الغرض، لكن الانجليز تنبهوا للأمر فأمّنوا له فرقاطة لتقلّه إلى لندن لمناقشة الأمور معه هناك. ويواصل الحديث حول محاولة الانجليز اللعب في ورقة المماليك بمصر، ويذكر صراع هذا الأخير مع عثمان البرديسي[50] الذي أخافته تحركاته فقرر الخلاص منه بالسم أو القتل حال عودته. ".أوه بأسى "*ما أتعس السياسة في آسيا فهي دائما ملازمة لسلاح السمّ أو الخنجر* !!" .

ويسرد لنا قصة الألفي وعلمه بما يخططه له غريمه، وهربه إلى الصحراء وقصته مع الأعرابي، وتداخلات قضيته مع الصراع الانجليزي العثماني على مصر حتى صفت الأمور لمحمد علي، مؤكداً أن ما حصل للألفي هو ضربة في الصميم للوجود الإنجليزي في مصر, معها أضاعوا مصالح مهمة جعلت منهم في السابق أسياد التجارة في مصر.

---

[48] كان ذلك في ليلة الثلاثاء الثالث من محرم سنة1221هـ الموافق لـ1806/3/24م حسب الجبرتي في: تاريخ عجائب الآثار 111/3.

[49] أشار الجبرتي إلى صراع هذا الرجل مع رجالات الدولة العثمانية خاصة محمد علي على مدى صفحات متعددة. أنظر مثلا: في المصدر السابق 112/3-123، وانظر في هذا المجال: إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر, ص11-13.

[50] أفرد له الجبرتي ترجمة وافية. أنظر نفس المصدر 173/3-175.

ويشيد بعلاقته المميزة بحاكم الإسكندرية آنذاك قبطان باشا[51] الذي اختصه بالحلويات وأرسل له طبيبه الخاص، ويعزو ذلك لعدم تدخله فيما لا يعنيه، حيث انشغل في اهتماماته الخاصة، وأمضى تسعة عشر يوماً في مخيمه مع أصحابه خارج أسوار الاسكندرية القديمة يستمتع بالبحر ويستخرج نباتاته لأغراض علمية ويعدّ لوحة لمنظر المدينة العام.

[51] أشار الجبرتي إلى هذا الحاكم وتطرق لمنافسته لمحمد علي، أنظر: تاريخ عجائب الآثار، 82/3، 125، 129.

خروج باديا من الإسكندريّة:

بعد بحوث ودراسات ومشاهدات متعدّدة قام بها في الإسكندريّة وخارجها طلب من حاكمها القبطان باشا أن يكتب له توصيات لكلّ من محمّد علي وآخر لحاكم دمشق وفرمان لشريف مكّة ذكر لنا مطلعه ومقاطع متعدّدة منه يوصيه به على أنّه أحد أتباع ملك المغرب مولاي إسماعيل الّذي جاء لأداء فريضة الحجّ. وقد علّق باديا على هذه الرسالة فذكر أنها أخطأت في اسم السّلطان المغربي الّذي هو مولاي سليمان وليس إسماعيل كما أنّها عدّت باديا من خدم هذا الأمير، ومردّ هذا الخطأ هو أنّ المغاربة هم الّذين أرادوا تسهيل أموره بهذا الانتساب كما يدّعي.

خرج باديا تاركًا الإسكندريّة متّجهًا نحو القاهرة آخذًا طريق النّهر (النّيل) بعد خمسة أشهر ونصف وذلك في يوم الخميس 30 من شهر أكتوبر سنة 1806م الموافق 18 من شعبان سنة 1221هـ. مودّعاً من قبل بعض أعيان البلد الذين رافقوه مسافة ساعتين. وقد وصف لنا وقائع الرّحلة والمركب الّذي أقلّه، ومشاكل هذه المراكب وكثرة حوادثها, وما رآه من مشاهد عمرانيّة وحيوانيّة ومائيّة، ويتغنى بمنظر التقاء النيل بالمتوسط ونهر النيل المحاط بالنخيل وأشجار الأرز والمليء بآلاف الطيور التي تشدو بألحانها العذبة, حتّى وصل إلى مدينة رشيد الّتي وصفها بأنّها لا تختلف عن مظهر أية مدينة أوروبيّة، ومن عجائب الصّدف أنّ حاكم هذه المدينة يحمل اسم رحالتنا نفسه علي باي وهو أغاً أرناؤوطيّاً ومثله أحد وجهاء المدينة الأتراك.

يستمرّ باديا في رسم لوحة جميلة مليئة بالصور الحيّة لما لقيه في رحلته النيليّة تلك من حيوانات وطيور وشجر وبشر وقرى ومدن وأحياء مائية أو نباتية على طول الطريق الذي استغرق منه عشرة أيام قضاها ما بين إبحار واسترخاء على ضفتي النهر؛ حتى طرق أبواب قاهرة المعزّ من بوابتها النهرية "بولاق".

باديـا في القاهـرة:

في يوم الإثنين العاشر من نوفمبر سنة 1806م(29 شعبان سنة 1221هـ) كان وصول علي بايإلى القاهرة ودخوله إليها في حفلٍ مهيبٍ – حسب وصفه – يتقدّم هؤلاء المستقبلين صديقه شيخ المغاربة والرّجل الثّاني في المدينة حسب تعبيره ونقيب الأشراف وغيرهم، ويحاول باديا أن يقنعنا بأهميته من خلال وصف مظاهر هذا الاستقبال والشّخصيّات الّتي رّحبت بمقدمه ومظاهر التّقدير الّتي لقيها، فقاضي القاهرة عمر مكرم يرسل له أعداداً من الإبل لنقل حاجياته، بينما نقيب المغاربة الملوي؟ (Methluti, Medluti) اصطحبه معه إلى بيته، وجهز له غرفة في منزله، واستقبل بعد نزوله عدداً من الزوار من مشائخ ورجالات القاهرة المهمّين وكذلك بعض الأمراء المغاربة خاصة الأمير مسلمة أخو حاكم المغرب مولاي سليمان الذي اختلف معه على الحكم ودخل في نزاع انتهى بلجوئه إلى الشرق ما بين مصر والحجاز[52]، والذي حظي باهتمام باديا وتبادل ذكريات المغرب وأحداثه معه.

يتوّقف قليلاً ليرسم لنا الصّورة السّياسيّة الّتي تعيشُها مصر خاصّة القاهرة، ويُشيد بمحمّد عليّ الشّاب الّذي يتمتّع بالحيّويّة والنّشاط عندما زاره بمعيّة الشيخ عمر مكرم، وكيف وصل إلى الحكم وأنقذ الشّعب من مُعاناته مع المماليك والأتراك، لكنّه مع ذلك لم يعرف كيف يستقّل بالبلد وأعطى للوجهاء أو المشائخ مكانة مكنّتهم من لعب دورٍ مهمّ في إدارة البلد، وعاد الجندي إلى استبداده وطغيانه والشعب إلى معاناته والكبار لم يطلهم شيء من ذلك.

وبعد حديث عن وضع مصر السياسي بين نفوذ الخلافة وعجزها عن فرض سلطتها، والمماليك في أعالي مصر، يضرب مثلا بالإسكندرية من خلال موقعها الجغرافي الذي جعل منها مدينة دون هوية فلا هي مصرية وليست بالطبع تركية. ثم ينتقل فجأة للحديث عن مسمى مصر والقاهرة.

وينتقد الرّحالة النّصارى الّذين يصفون المدينة وشوارعها بالقذارة والكآبة ويؤكّد عكس ذلك، فالقليل من المدن الأوروبيّة تفوقها بالنّظافة.

ثمّ يستطرد في وصف المدينة: العدد الكبير من محلاّتها التّجاريّة وورشها وكثافة مرتاديها متعددي المشارب مما أضفى البهجة والسرور

---

[52] فصل الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) أخبار هذا الصراع وهجرة مسلمة إلى الشرق. أنظر: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج8 ص 86- 93.

على رحالتنا ونقله إلى أجواء كبريات المدن الأوروبية، أما مجمع الفرنجة أو الأوربيين فهو يوحي بالكآبة والعزلة، يرتدون ملابسهم في بلادهم التي تزيد من عزلتهم فعندما يخرجون إلى شوارع المدينة يصبحون محطّ أنظار الناس وجذب فضولهم؛ يتساءل باديا: *هل نضع اللوم على العرب معدومي الحضارة بينما نرى الانجليزي المتحضر يفعل ما هو أشدّ من شتم الأجنبي الذي يظهر في بدلة تزيد أو تنقص عمّا تعارف عليه بضع سنتيمترات*؟

كان تصميم المنازل والنوافذ وحتى الشوارع في هذه المدينة مناسباً جداً لتلطيف درجة الحرارة، حسب رأي باديا الذي ينتقل بعد ذلك للحديث في المُناخ وأجواء القاهرة مقارناً إياها ببعض المدن الأوربية. ثم يتحول في حديثه إلى مساجد المدينة خاصّة الأزهر[53] الّذي تكمن عظمته في سعته أكثر منها في جمالياته، وقد أفاض في وصفه مقللاً من قيمة تيجان الأعمدة التي وصفها بالخشونة وسوء الصنعة، بينما يلفت نظره السجاد الفارسي الذي يغطي أرضية المسجد والذي يتم تغييره باستمرار لكن المتسولين يشوهون صورته باتخاذه ملاذاً لهم ومرقداً، ويعرّج على مكانته وأهمية قاصديه من مشائخ وقضاة وطلبة علم وغيرهم، ثّم يشير بإيجاز إلى بقيّة المساجد الكبرى كجامع الحسين والسيدة زينب[54] وجامع السلطان قلاوون[55] الذي كانت تنسج فيه كسوة الكعبة؛ ثمّ انتقل بالحديث إلى المستشفى العامّ المجاور للمسجد المذكور وكلاهما يقعان في حي فقير، يتوقف عند هذا المشفى وكيف كان يعتمد في نفقاته وإدارته ذات الكفاءة العالية.

يضع لنا باديا بعد ذلك قائمةً بأهمّ الشخصيات الدينية التي كانت على رأس المسئولية حين قدومه، فيبدأ بسيدي عمر المكرم[56] نقيب الأشراف ثم نقيب المغاربة[57]، وبعدها يسرد قائمة بمشائخ القاهرة الكبار ووظيفة كل منهم:

---

[53] بناه الفاطميون بين سنة 359هـ/970م وسنة 361هـ/975م في قاهرة المعز بعد استيلائهم على مصر.

[54] بناهما الفاطميون أيضاً بعد استقرارهم بمصر في القاهرة، فكان بناء مسجد الحسين بن علي - رضي الله عنه - سنة 549هـ/1154م؛ أما مسجد السيدة زينب فقد كان ضريحاً تحول إلى مسجد وجامع كبير على يد المعز الفاطمي، في حي شعبي مازال يُعرف بهذا الاسم. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة موسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية تحت هذين المسمَّيين.

[55] شيَّده السلطان محمد بن قلاوون سنة 735هـ/1335م بالقلعة في مدينة القاهرة.

[56] هو السيد عمر أفندي مكرم الأسيوطي. أنظر: الجبرتي، نفس المصدر 250-251 ؛ ريمون, المصريون, ص36.

[57] لم نستطع قراءة الاسم كما ورد في رسم باديا. أنظر ص23 من هذا الموضوع.

الشيخ الشرقاوي[58]	شيخ الأزهر ورئيس علمائها
الشيخ الأمير[59]	مدير ومسئول القضايا المالية بالأزهر
السادات شيخ الوفائية[60]	رئيس النظام أو المؤاخاة (الوفائية)
الشيخ البكري[61]	رئيس السادة البكرية
المشائخ الأربعة مستشاري القاضي	الشيخ: الحنبلي، المالكي، الشافعي، الحنفي

ويقول إنهم ذكروا له عددا آخر من العلماء، أمثال: الشيخ المهدي والشيخ سليمان الفيومي[62] والسيد الدواخلي[63] والسيد عبد الرحمن الجبرتي الفلكي الأول بالبلاد[64], والشيخ العروسي[65] والشيخ الصاوي[66] والسيد

---

[58] هو الشيخ عبد الله بن حجازي أحد علماء الأزهر المعتبرين، ولي مشيخة الأزهر سنة 1208هـ وصنّف عدداً من الكتب. أنظر أخباره في: الجبرتي , المصدر السابق 134/3، 136؛ الزركلي: الأعلام 78/4؛ ريمون, المصريون. ص36-37.

[59] وقد أوردها الجبرتي: الشيخ محمد الأمير، وقد كلف بمسئولية الصلح مع المماليك بهيئة ضمت معه الشيخ العروسي والدواخلي سنة في ذي الحجة سنة1221هـ/1807م. أنظر: تاريخ عجائب الآثار 143/3. وانظر ص572-574؛ ريمون, المصريون. 38-39.

[60] ذكر الجبرتي أنه: شيخ السَّادات وهو الناظر والمسئول عن مولد المشهد الحسيني المعتاد. المصدر السابق 127/3. وقد ترجم له ترجمة وافية في نفس الكتاب 419/3-438. وهو محمد أبي الأنوار السادات كان في هذه الفترة أهم العلماء المؤسسين وذلك بالنظر إلى دوره كرئيس لطريقة الوفائية؛ كما كان الشيخ السادات والشيخ البكري يقومان بالتنسيق بين الطرق الصوفية ويتنافسان على تولي منصب نقيب الأشراف, كما أنهما ينظمان موالد مهمة كالمولد النبوي ومولد البكرية والحسين، أنظر:أندريه ريمون, المصريون والفرنسيون ص27, 33.

[61] هو الشيخ خليل البكري الذي أشار الجبرتي إلى تقليده نقابة الأشراف سنة 1213هـ/1798م واختصه وأسرته بترجمة وافية. أنظر: نفس المصدر 202/2؛ 250/3-252. 384-385

[62] كان من ضمن ثلاثة مشائخ أرسلوا للصلح مع الأمراء القبليين. الجبرتي: نفسه 207/3؛ ريمون: المصريون، ص39.

[63] الشيخ محمد الدواخلي نقيب الأشراف بعد عمر مكرم. الجبرتي: نفسه 486/3.وانظر سيرته بتفصيل أوسع, 588/3-590.

[64] لا ندري هل المقصود عبد الرحمن المؤرخ الذي تولى كتابة الديوان لنابليون، كما كان مفتي الحنفية في عهد محمد علي، أم يقصد شخصاً آخر بنفس الإسم. أنظر حول ترجمة المؤرخ: خير الدين الزركلي, الأعلام 304/3 ط. بيروت 1980. لكن يمكن الجزم بأن المقصود هو المؤرخ حيث أكّد دارسوه بأنه أحد المهتمين بهذا العلم والمبرزين فيه. أنظر: مقدمة كتاب: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، القاهرة 1998م ص17.

[65] تولى مشيخة الأزهر في فترة سابقة.

[66] الشيخ مصطفى الصاوي. الجبرتي: المصدر نفسه 589/3. وانظر المزيد حول سيرته في: أندريه ريمون, المصريون. ص37.

المحروقي رئيس التجارة والشخصية ذات التأثير والنفوذ[67]، ومحمود حسن نائب الرئيس الثاني للتجارة.

وبعد أن وضع لنا هذه القائمة بأسماء المشائخ والعلماء وذوي المسؤوليّات العاليّة يصفهم بأنّهم استغلّوا نفوذهم ومكانتهم وعاشوا في نعيمٍ بينما الشّعب يُعاني من ضنك العيش "*يحيطون أنفسهم بحاشية عريضة ويستقبلون طبقات الشّعب الدّنيا بالاحتقار*"، "*كلّ هذا يُعطي لمصر مظهر جمهوريّة أرستقراطيّة مكّبلة بالحديد تحت تسّلط العسكر*[68]".

يتوّقف عند الاحتفالات المصاحبة لشهر رمضان واستعدادات النّاس وفرحها بهذه المناسبة سواءا في منازلها أو شوارعها أو أجوائها العامة، "*فالسكان يسرحون ويمرحون كالمجانين في الشوارع يوم العيد وفي أيديهم سعفات النخيل الخضراء بينما تنتقل النساء بمجموعاتهن من جانب لآخر، ويعلوا الصراخ والعويل من عددٍ كبير من هذا الجمع*[69]".

ثمّ يتحوّل إلى وصف الطبيعة والأهرامات في الجيزة الّتي زارها تحت وطأة الخوف من الأعراب وبرفقة رجاله المسّلحين، يسترسل بالوصف والشّرح لهذه المعالم وما أحاط بها من طبيعة، ويدوّن انطباعاته ومشاهداته ومرئياته حيال ما رآه من عظمة الاهرامات التي شيدتها يد الإنسان. كما يخصّص حيّزًا غير قليل لوصف بعض المعالم الأثريّة والمعابد النّصرانيّة وحيّ بولاق والجيزة وجزيرة الروضة النيلية، وما كان يعرف بـ"المقياس" ذلك العمود المنتصب لقياس ارتفاع مياه النيل يوميا وقد خصّه بتفصيل مفيد وتحسر على عدم العناية به وتخصيص من يقوم بحراسته وعدم الاستفادة منه مع أهميته لمصر في ظروف الفياضانات، ولم ينس أن يشيد بالفرنسيين الذين أولوه جُلّ اهتمامهم فرمموه وأضافوا له بعض الإضافات. ثم ينتقل إلى القاهرة العتيقة فيتوقف عند منازلها الخربة، يتحول بعدها إلى معبد نصراني مخصص للقديس سان جورج، وبعد حديث عنه ينتقل إلى معبد الأقباط ويسجّل لنا بعضاً مما رآه وما سمعه.

وبعد حديث عن بولاق الذي يعتبره أهم أحياء القاهرة, يصف مينا‌ه وحركة الناس والمراكب, ويتحدّث عن التّجارة فيه وتأثّرها في مصر من جراء المشاكل المحيطة في أعلى مصر حيث المماليك وفي الغرب ثورات

---

[67] هو محمد بن أحمد المشهور بالمحروقي الحريري، خلف والده بهذه المهنة واشتهر الحذاقة والجود والكرم أنظر ترجمته في: الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار ج3 ص51-56

[68] ج1 ص265.

[69] ج1 ص266.

البربر وتوقف التجارة مع المغرب والجزائر وغيرها، ومشاكل البدو وقطع الطّريق في الشّرق (السّويس) وسرقة القوافل القادمة من الجزيرة العربيّة والهند ، وحروب الإنجليز الّتي عطّلت التّجارة في البحر المتوسط، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ القاهرة تشهد حركة تجاريّة ضخمة, يمكن معها القول: *"إن مصر غنية بمواردها, لكن ماذا لو تحسنت الظروف تحت ظلّ حكومة راعية*[70]".

[70] يمكن ترجمة الجملة أيضاً " حكومة وصاية".Un gobierno tutelar وقد ناقش أندريه ريمون هذه الأزمة الاقتصادية، وأضاف عوامل أخرى أهمها دخول البضائع الأوربية منافسة للمحلية. أنظر:المصريون والفرنسيون في القاهرة, ص17-19.

مغـادرة القاهـرة:

لم يطل المقام ببباديا في القاهرة على الرغم من أنها تستحق منه وقتاً أطول ووصفاً أدقّ وأشمل, لكن نظراً لانشغاله بأمر الحج الذي اقترب أوانه ولأنه ينوي العودة إليها مرة أخرى، فقد اكتفى بهذه المدة التي لم تزد على الشهر وخمسة أيام، فبعد إنتهاء شهر رمضان وبالتحديد في يوم الإثنين الخامس عشر من ديسمبر سنة 1806م الموافق 5 من شهر شوال سنة 1221هـ غادر القاهرة متوجهاً إلى جدة سالكاً طريق السويس ثم البحر الأحمر، وقد وصف لنا مشاهد الوداع الذي حظي به من أصدقائه، كما حظي بزيارات متعددة بمخيّمه الذي مكث فيه استعداداً للرحيل سواء من مسلمين أو من نصارى كان من بينهم القنصل الأول الفرنسي الذي حضر بمعيّة وفد معتبر.

يصف هذه القافلة الضخمة التي تضم الحجيج المتجهين إلى مكة المكرمة والتي تتكون من خمسة آلاف جمل وما بين مائتين وثلاثمائة فرس، لعلي وحده منها أربعة عشر جملا وفرسين. يوضح لنا نظام تحركها وسيرها وقيادتها، وكيف تتقدم الطلائع وترقب الطريق، ثم انضمام حجاج السويس إلى نفس القافلة، وخلال ذلك لم ينس أن يذكرنا بالمعالم القليلة التي مرّ بها مع أنها في غالبيتها صحاري جرداء خالية من النبات والحياة.

مدينة السويس الصغيرة تضم حوالي خمسمائة مسلم وبضع وثلاثون من النصارى، وتكمن أهميتها في موقعها على البحر الأحمر حيث تعتبر مفتاح مصر في هذه الناحية، وميناؤها سيء وضيق, لكن الآخر الواقع في جنوبها واسع وجيد. يواصل حديثه عن المدينة في منازلها وشوارعها وطقسها وسوقها ومياهها العذبة النادرة التي تأتيها من الجبال الشرقية؛ كما يذكر أنها مركزاً للتجارة وملتقى للتجار، ويحكمها أحد المماليك السود تحت مسمى الأغا وفي معيّته ثلاثون جندياً من الأرناؤط. ظلّ باديا في هذه المدينة يومين فقط ومنها استقل الباخرة المتجهة إلى جدة في يوم الثلاثاء 23 من ديسمبر الموافق 13 من شوال سنة1221هـ .

عودة باديا إلى مصر:

بعد زيارته لمكَّة المكرَّمة وجدَّة وما حولهما وفشل محاولته الوصول إلى المدينة، قرر رحّالتنا العودة إلى مصر وبالتحديد إلى القاهرة التي ترك فيها بعض أغراضه وخدمه، سالكاً طريق البحر الأحمر، وفي رحلة طويلة

وشاقة قصّ فيها متاعبه ومشاهدات الطريق[71]، وصل إلى مصر عن طريق سيناء، فحلّ بالسويس ومنها اتجه إلى القاهرة واصفاً بعض المواقع التي مرّ بها مثل بير سويس وما حولها ومواقع أخرى صغيرة مشابهة وصحاري واسعة عريضة وقاحلة تحت ظروف مناخية قاسية ودرجة حرارة عالية وشحّ في المياه.

وقبل دخوله القاهرة خرج لاستقباله عدد من الأعيان من بينهم عمر مكرم نقيب الأشراف مع عدد من العلماء والوجهاء يرافقهم كوكبة من المماليك والحشم، كما كان الأمير المغربي مسلمة حاضراً أيضاً؛ ويتحدث بافتخار بقدوم هؤلاء لاستقباله ومشاركتهم المحتفلين بهذا القدوم معتقداً أن ذلك "ابتهاجا بعودة سيدي علي باي السعيدة[72]" وقد دخلوا القاهرة من باب الفتح في منتصف شهر يونية من سنة 1807م الموافق للثامن من ربيع الثاني سنة 1222هـ[73]، لكن الأوضاع فيها كانت غير مستقرة بل في حالة استنفار حسب تعبير باديا، نظراً لهجوم الإنجليز على مدينة رشيد ونزولهم في الإسكندرية[74]، كما أن القاهرة تحتفظ بعدد من الأسرى الإنجليز[75]، لذا فإن هجومهم المتوقع دفع بصاحبنا إلى مغادرة المدينة بعد تسعة عشر يوماً فقط متجهاً إلى القدس[76]، حيث خرج في صباح يوم الجمعة الثالث من شهر يولية من نفس السنة، دون أن يسجل شيئا من ذكرياته وملاحظاته هذه المرة،

---

[71] أخبار هذه الرحلة إلى مكّة المكرمة ومشاهداته هناك في وردت في كتابنا عنها المشار إليه سابقاً "رحّالة إسباني في الجزيرة العربية".

[72] الواقع أن ذلك احتفال تقليدي يُعدّ بمناسبة مقدم الحجيج كل عام. أنظر حول ذلك ما كتبه اللواء إبراهيم رفعت باشا في: مرآة الحرمين ج1 ص 493 ؛ ج2 ص241 . (كان قائداً لحملة الحجّ المصرية سنة 1903،1901, 1904، 1908) وكذلك: الجبرتي, المصدر السابق 132/3.

[73] فعلاً بهذا التاريخ وصلت قافلة الحجيج، لكن لم يفصل لنا الجبرتي شيئا من أخبارها ولم يشر من بعيد ولا قريب إلى هذا الرحالة, وكان أمير الركب المصري هو مصطفى جاويش. الجبرتي: نفسه 189/3, 204.

[74] أكّد الجبرتي هذا الخبر في يومياته وإن كانت متقدمة قليلا على هذا التاريخ. أنظر: نفس المصدر 177/3، 179.

[75] أكّد الجبرتي هذه الحقيقة وأشار إلى مراسلة الإنجليز بهذا الشأن. كما أكد في موقع آخر أنه تم إطلاق سراحهم بالثاني عشر أو الحادي عشر من رجب سنة 1222هـ الموافق 14-1807/9/15م أنظر: المصدر نفسه, 200/3، 214.

[76] أورد المؤرخ الجبرتي خبراً قد يعلل سفر باديا إلى الشام خاصة إذا سلّمنا بارتباطه بالفرنسيين, يقول فيه: " وفيه (محرم سنة 1222هـ) حضر قنصل الفرنساوية إلى مصر وكان بالإسكندرية, فلما وردت مراكب الانجليز انتقل إلى رشيد, فلما بلغه طلوعهم إلى البر حضر إلى مصر وذكر أنه يريد السفر إلى الشام هو وباقي الفرنساوية القاطنين بمصر". لكن القنصل لم يغادر وورد اسمه متواجداً في القاهرة بعد هذا الشهر، فهل كانت مغادرته بعد هذا التاريخ ورافقه باديا مع بقية الفرنسيين؟

ودون أن يعلّل لنا السبب الحقيقي لهذا الخروج المفاجئ مع حفاوة الاستقبال ومظاهر الاحترام والتقدير التي لقيها.

وكعادته عند قدومه أو رحيله كان هناك جمع كبير في وداعه عند خروجه في سفرته هذه إلى القدس فالمشائخ إياهم كانوا برفقته مودعين، وصديقه الأمير المغربي متشبثاً به يريد ثنيه عن السفر، لكن قراره كان نهائياً ولم يبق إلاّ أن يستودعهم الله شاكراً كرم ضيافتهم ومواصلاً رحيله إلى بيت المقدس.

أخيراً: يمكن أن نستخلص بعض النقاط والوقفات المهمَّة في هذه الرِّحلة:

ـ في رحلة دومنجو باديا إلى مصر التي اتخذت خطاً متعرجاً من الشَّمال وتحديداً من الاسكندريَّة وحتى القاهرة، نلحظ إثراءه لمعلومات قارئيه عن هذه المدينة وما حولها، رغم الأحوال السِّياسيَّة السَّيئة التي تمرُّ بها المنطقة، فهل كان لجهود الفرنسيّين دور في هذا التَّرتيب وحسن الاستقبال من قبل سلطات المدينة التي فتحت له الأبواب وهيَّأت له السُّبل للتعرف والتجوال؟

يبدو لنا من تمعّن ما كتب، أنَّ أخباره سبقته والتَّوصية بالعناية به قد وصلت لهؤلاء المسئولين إمَّا من القنصل الفرنسي أو من حاكم طرابلس، وهذا انعكس على نفسيَّة رحَّالتنا ومنحها نوعاً من الاطمئنان ظهر في ما دوَّنه عن معالم المدينة وأهلها وعاداتها وأقلياتها مما لم نجده فيما كتبه عن القاهرة.

ـ كما يبدو عليه الاضطراب وعدم التركيز في القاهرة مع محاولته إيهامنا بأنَّ استقباله كان حافلاً بعليَّة القوم، فهل يمكن تعليل ذلك بتحفُّظ سلطات المدينة من جهة والأوضاع السِّياسيَّة المضطربة في هذه الفترة من جهة أخرى؟ هذا ما يبدو لنا، وهو ما يظهر من تذمُّر باديا نفسه، ممَّا جعل الفتور يدبُّ في نفسه، لاسيَّما وأنَّ له عودة أخرى إلى هذه المدينة بعد نهاية الحجّ ومراسمه، وانشغاله بأمر الحجّ والمستقبل وما يخبّؤه له، فقد يكون ذلك مَثبّطاً آخر جعله لا يستقصي ويهتَم بالتَّدوين لكل صغيرة وكبيرة كما هو الشَّأن مع الاسكندريَّة، ولهذا نجد مذكراته لا تحمل الكثير الذي نتوقعه منه عن هذه المدينة العريقة.

ـ بعد عودة باديا من الحجّ لم تكن الظروف تصبُّ في صالحه، فهجوم الانجليز على الشَّمال وتحقيقهم لبعض الانتصارات، وهجومهم الوشيك على

القاهرة، أصاب الفرنسيّين في مقتل وجعل أنظارهم تتجه إلى الشَّام، فكان الرَّحيل المفاجئ للجالية الفرنسيَّة ولرحَّالتنا إلى الشَّام مروراً بفلسطين، ممَّا لم يعطه الفرصة لاستكمال ذكرياته ومدوَّناته عن هذه المدينة بما كان يأمله وما كنَّا نرجوه.

ـ أحاط باديا نفسه بهالة من التفخيم والعظمة ليوحي لمستضيفيه أنه شخص مهم، ولذا نجده يحرص على أن يكون له موكبٌ يشبه موكب الأمراء بمرافقيه ومركبه وبذخه في الإنفاق والهدايا.

ـ تقمَّص باديا شخصيَّة أسطوريَّة مغربيَّة في مصر وادَّعى أنه أحد الأشراف وابن السُّلطان، وتخفَّى تحت ستارها ليوهم الناس وصغار الولاة الذين تنطلي عليهم مثل هذه التُّرهات خاصَّة إذا رافقتها الهدايا والإنفاق بسخاء، لكن تظل لدينا بعض النقاط الغامضة التي تحتاج إلى تجلية بل بحث ودراسة خاصة وقد أضاءت لنا مذكرات باديا بعضاً من جوانبها، فمثلاً ما حجم الجالية المغربيَّة في مصر؟ وهل هي مستقرَّة أم طارئة جاءت للحَجّ؟ وهل يمكن أن نعتبر أحد رموزها وهو الأمير مسلمة لاجئاً سياسيّاً؟ ثم لما تغاضت هذه الجالية ممثَّلة بأميرها عن ادِّعاء باديا الانتساب إلى الأسرة المالكة المغربيَّة، هل يخفي وراءه ورقة سياسيَّة يمكن الاستفادة منها بالمستقبل؟ كلُّ هذه التساؤلات نتركها للمهتمِّين والمختصِّين في تاريخ هذه الفترة.

ـ لعلَّ شخصيَّة باديا في دورها التَّجسُّسي للفرنسيّين والتَّحريضي ضد الانجليز، ظهرت بوضوح في مصر، فاتصالاته بالقنصل الفرنسي وارتباطه به وتعريضه بالإنجليز من خلال مدوَّناته تؤكِّد هذه المقولة، وهو ما عرضنا له في ثنايا الموضوع.

قد يكون الإيجاز حليفي فيما كتبت والتقصير رديفي فيما عرضت، لكن هو جهد المقلِّ وعليك قارئي الكريم إدراك أنَّ هذا الموضوع ليس إلاَّ مساهمة متواضعة لموضوع واسع وعميق له أساتذته ومختصّيه، نسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وإنارة لمستنير، والله الموفِّق والمعين.

أهم المصادر والمراجع

ـ اللواء إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين لم يوضح مكان ولا تاريخ الطباعة. (كان قائداً لحملة الحجِّ المصريَّة سنة 1903،1901, 1904، 1908).

ـ إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر, القاهرة 2003م.

ـ أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798-1801م, ترجمة بشير السباعي الناشر. عين للدراسات والبحوث القاهرة 2001م.

ـ جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب ترجمة قدري قلعجي ، نشر مكتبة الفاخرية بالرياض؟؟

ـ جلال يحيى: المغرب الكبير، ط. بيروت 1981م ج3.

ـ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط. بيروت 1964م ج1.

ـ خير الدين الزركلي, الأعلام 304/3 ط. بيروت 1980.

ـ روبن بدول : الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية ، ترجمة عبد الله نصيف ، جامعة الملك سعود الرياض1989م .

ـ شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر القاهرة 1974م .

ـ صالح محمد السّنيدي: رحّالة إسباني في الجزيرة العربيَّة، نشرته دارة الملك عبد العزيز بالرياض 1429هـ

- عارف العارف: المفصَّل في تاريخ القدس، الناشر: مكتبة الأندلس بالقدس 1961م ج1.

- عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار 3ج ط. دار الجيل بلبنان, بيروت.

- عبد الرحمن الجبرتي والشيخ حسن العطار: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، ط. القاهرة 1998م.

- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى, الدار البيضاء 1956م.

- موسوعة ويكيبديا.

- ALI BEY, Viajes por Marruecos, Tripoli, Grecia y Egipto …Barceelona, 1982.

- مجموعة من الباحثين الإسبان:

Ali Bei; Barcelona. 1996

JULIO ROMANO, Viajes de Ali Bey el Abbasi. Madrid, 1951.-